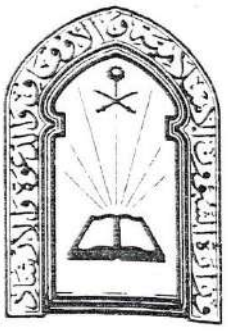

المملكة العربية السعودية
وزارة الشئون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد
د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
وعميد كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الجزء السادس عشر

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامّة لمسابقة القرآن الكريم الدَّوْلِيّة

التفسير البسيط للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
وعميد كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

ح وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

باجودة، حسن محمد
التفسير المبسط للقرآن الكريم ـ الرياض.
٢٩٠ ص، ١٧×٢٤ سم
ردمك : ١-٣٣٧-٢٩-٩٩٦٠ (مجموعة)
٨-٣٣٩-٢٩-٩٩٦٠ (ج١٦)

١ - القرآن ـ تفسير
ديوي ٣ ، ٢٢٧

أ ـ العنوان
١٩/٢٢٧٩

رقم الإيداع : ١٩/٢٢٧٩

ردمك : ١-٣٣٧-٢٩-٩٩٦٠ (مجموعة)
٨-٣٣٩-٢٩-٩٩٦٠ (ج١٦)

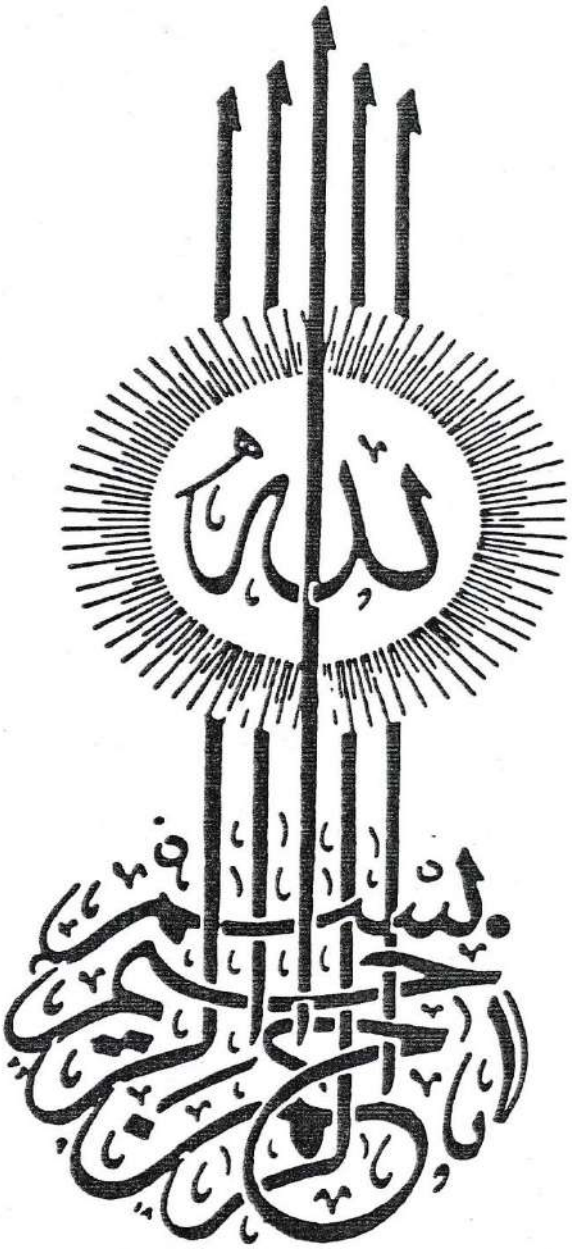
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء السّادس عشر من القرآن الكريم، يغطّي عَجُزَ سورة الكهف وسورةَ مريم وسورة طه، وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء الخمسة عشر السّابقة. إنّ هذا الجزء السّادس عشر، هو ميدان التفسير للمتسابقين، في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، مِنْ بين الحقول الخمسة في المسابقة السنوية الدّولية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، التي عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد برئاسة معالي وزيرها الأستاذ الدّكتور عبدالله بن عبدالمحسن التّركي في أثناء الفترة من ١٩/ ٥/ ١٤١٨هـ حتّى ٣٠/ ٥/ ١٤١٨هـ الموافق ٢٠ سبتمبر ١٩٩٧م حتّى ١ أكتوبر ١٩٩٧م. وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال الّتي تمّت في مجال التفسير، في أثناء المسابقة التاسعة عشرة، علماً بأنّ ميدان المتسابقين في المسابقة العشرين، إن شاء الله تعالى، هو الجزء السّابع عشر من القرآن الكريم.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة الّتي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الّذي حرصت فيه كما حرصت في سابقيه، على أمورٍ أهمّها ثلاثة:

١ ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات .

٢ ـ أن أشير إلى الدّروس الّتي يمكن أن تستفاد.

٣ ـ أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه سميعٌ مجيب.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتَهُ على الّذين من قبلنا. ربّنا ولا تُحَمّلْنا ما لا طَاقة لنا به. واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
يوم الاثنين ٧/١٢/١٤١٧هـ
الموافق ١٤/٤/١٩٩٧م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

أولاً :

تمام سورة الكهف

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ
عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي
أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

بين يدي
التّفسير

((١))
((بقية قصّة موسى عليه السّلام مع الخَضِر))
الآيات (٧٥-٨٢)

قرّرت الآية الكريمة الأخيرة فى الجزء الخامس عشر أنّ موسى عليه السّلام والخَضِر انطلقا بعد أن اعتذر موسى عليه السّلام عن نسيانه الشّرط الّذى قبله وخَرْقِه له بالإنكار على الخضر خرقه للسّفينة. حتّى إذا لقيا غلاماً أجمل أقرانه فقتله الخضر كان إنكار موسى عليه السّلام على الخضر فى هذه المرّة الثّانية أشدّ منه فى المرّة الأولى.

ويبدأ الجزء السادس عشر بمواصلة الحديث فى قصّة موسى عليه السّلام والخضر. إنّ الخضر ينكر فى استفهامه بصورةٍ أشدّ على موسى عليه السّلام عدم استطاعته الصّبر مع الخضر على ما يقوم به من تصرفات، والدّليل على الإنكار الأشدّ مجيء الجار والمجرور : ﴿لك﴾ العائدين إلى موسى عليه السّلام وعدم مجيئهما فى المرّة الأولى. ويعتذر موسى عليه السّلام فى هيئة الاشتراط على نفسه بأنّه إن سأل الخضر بعد ذلك عن أيّ شيءٍ فمن حقّ الخضر ألاّ يسمح لموسى عليه السّلام بمصاحبته فقد بلغ العُذْرَ فى شأنه. وينطلق موسى عليه السّلام والخضر حتّى إذا أتيا بعد مشقّة أهل قرية فسألاهما الطّعام فأبوا أن يضيّفوهما وبقيا جائعين. وفى أثناء السّير فى القرية وجدا حائطاً مائلاً يوشك أن يتهدّم فبادر الخضر فأقامه بيده وأعاده إلى حالة الاستقامة. قال موسى عليه السّلام : لو شئت لاتّخذت عليه أجراً واشترطت مبلغاً من المال نحصل به على طعامٍ من أهل هذه القرية البخلاء. قال الخضر : هذا وقت الفراق بينى وبينك وأوان المفارقة. وقَبْلَ الفراق يَعِدُ الخضر موسى عليه السّلام بأن يخبره بتفسير ما لم يستطع موسى عليه السّلام صبراً عليه. أمّا السّفينة فكانت لمحتاجين يعملون فى البحر عليها فأراد الخضر أن يعيبها بخرقها فقد كان وراء أصحاب السّفينة إذا رجعوا ملكٌ كافرٌ يأخذ كلّ سفينةٍ صالحةٍ سليمةٍ غصباً وظلما. وأمّا الغلام فقد كان كافراً وكان أبواه

مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، ويحملهما قسراً، ويرغمهما قهراً، على الطّغيان على عباد الله تعالى، والكفر به عزّ وجلّ. فأردنا أن يبدلهما ربّهما جلّ وعلا ولداً خيراً منه طاعةً وطهارةً، وأقرب رحمةً لوالديه وبراً بهما. وأمّا الجدار فكان لغلامين صغيرين يتيمين فى المدينة، وكان تحت ذلك الحائط المائل مالٌ مدفونٌ لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربّك القادر على كلّ شيءٍ، الفعّال لما يريد، أن يبلغا أشدّهما، ويدركا رشدهما، ويستخرجا كنزهما، ويحسنا التّصرّف فى مالهما، رحمةً من ربّك البرّ الرّحيم بهما، وإكراماً لوالدهما الصّالح الّذى كسب المال من وجهٍ صحيح. وما فعلت كلّ ذلك عن أمرى وباجتهادي الشخصّي، ولكن بأمرٍ من الله تعالي لى ووحي. إنّ تبيين الحِكَم وراء أعمالي الّتى ظاهرها خلاف باطنها تفسيرُ مالم تستطع يا موسى صبراً عَليه وانتظاراً له، حتّى أكشف لك من ذات نفسى عن أسراره وحِكَمه.

((٢))

((ذو القرنين مثال الحاكم المسلم لله ربّ العالمين))

الآيات (٨٣-٩٨)

يقول السّياق للمصطفى ﷺ : ويسألك يا محمّد مشركو مكّة عن ذى القرنين، قل لهم : سأتلو عليكم منه ذكراً، وسأقصّ عليكم عنه خبرا. إنّ الله سبحانه وتعالى مكّن له فى الأرض، وقوّى ملكه، وآتاه من كلّ شيءٍ سببا، وجعل له من كلّ وسيلةٍ نصيبا، فأتبع سبباً من الأسباب على جهة الخصوص، ولحق وسيلةً معيّنةً من بين الوسائل المتعدّدة، وذلك السّبب وتلك الوسيلة تسخير كلّ أنواع القوى الّتى امتنّ الله تعالى بها عليه لخدمة دين الإسلام لله ربّ العالمين ورفعته وعزّته. وها هوذا يقود جيشه القويّ الكبير ويطوى به الأرض متّجهاً نحو الغرب، قامعاً للظّلم، ناشراً للعدل، مقدّماً المثل الأعلى الحيّ للحاكم المسلم لله ربّ العالمين. وظلّ ذو القرنين يواصل السّير حتّى بلغ بجيشه مغرب الشّمس لظاهر العين ووصل البحر المحيط فوجد الشّمس كأنّها تغرب فى عين ماءٍ ذات طينٍ أسودَ

منتن، ووجد عندها قوماً كافرين دعاهم للإسلام لله ربّ العالمين، فمنهم من أصرّ على كفره والصّدّ عن سبيل الله تعالى ومنهم من آمن. وقيل لذى القرنين إنّ من حقّه أن يعذّب من يستحقّ العذاب وأن يحسن لمن يستحقّ الثّواب. وكان جواب ذى القرنين هو جواب الحاكم المسلم لله ربّ العالمين فى كلّ زمانٍ ومكان. إنّ من ظلم فسوف يعذّبه ذو القرنين ثمّ يُرَدُّ إلى ربّه جلّ وعلا فيعذّبه يوم القيامة عذاباً عظيما. وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله الجنّة جزاءً له عند ربّه جلّ وعلا وسيقول له ذو القرنين اليسير من القول، وسيكون له اللّطيف من الأمر. ثمّ أتبع ذو القرنين سببا، وحقّق أرباً، وأدرك مطلبا، بأن عاد أدراجه، واتّجه ناحية المشرق، وأغذّ السّير حتّى إذا بلغ مطلع الشّمس لظاهر العين، وجدها تطلع على قومٍ لم يجعل الله تعالى لهم من دونها ستراً، ولم يجعل بينهم وبينها حجاباً. إنّ الأمر كذلك، والحال كما بيّن الحقّ جلّ وعلا الّذى أحاط بما لدى ذى القرنين خُبْراً، وأحاط بكلّ شىءٍ علماً. ثمّ أتبع ذو القرنين سبباً ولحقه وأدركه وحقّق به غايته، فقد استمرّ يسير بجيشه القوىّ العظيم يزهق الباطل ويحقّ الحقّ، حتّى إذا بلغ بين السّدّين، ووصل بين الجبلين العظيمين المنيفين، وجد أمامهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ولا يُحِيرون جوابا. قال أولئك القوم بعد لأي : يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج قومٌ مفسدون فى الأرض بالسّلب والنّهب والغصب والقتل وما إلى ذلك، فهل نجعل لك مبلغاً من المال على أن تجعل بيننا وبينهم سداً يمنع عنّا أذاهم. قال ذو القرنين الحاكم المسلم لله ربّ العالمين : إنّ الّذى مكّننى فيه ربّى والّذى آتانيه من الملك خيرٌ من المال الّذى تريدون إعطائى إيّاه، وسأسخّر كلّ ذلك فى صالحكم، فعليكم أن تعينونى بقوّة من سواعدكم وموادّ البناء أجعل بينكم وبينهم ردماً منيعاً بإذن الله تعالى. آتونى قطع الحديد الضّخام ففعلوا ووضع بعضها فوق بعض، حتّى إذا ساوى زبر الحديد برءوس الجبلين قال انفخوا على الحديد ناراً ففعلوا. حتّى إذا جعل الحديد ناراً متأجّجة قال آتونى نُحاساً مذاباً بالنّار أفرغه عليه ففعلوا. وهكذا كان السّدّ القوىّ العظيم الّذى ما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يرقوا على ظهره

لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه من أسفله لقوّته وسماكته. قال ذو القرنين الغاية فى التّواضع : هذا السّدّ الّذى تمّ بناؤه رحمةٌ من ربّى جلّ وعلا بى وقد وسعت رحمته جلّ وعلا كلّ حيّ وشيءٍ. فإذا جاء وعد ربّى بخروج هذه الأمّة، سوّاه جلّ وعلا بالأرض. وكان وعد ربّى عزّ وجلّ بقيام السّاعة حقّاً وصدقا.

((٣))
((بعض أهوال يوم القيامة وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين))
الآيات (٩٩-١١٠)

بعد أن ذكرت آيات القسم السّابق قصّة ذى القرنين الحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين الّذى وفّقه الله تعالى فبنى السّدّ لمنع يأجوج ومأجوج من الإفساد فى الأرض تأتى فى هذا القسم الآيات الكريمات التّعقيبيّة على قصّة ذى القرنين بل على السّورة الكريمة لأنّ هذا القسم آخر أقسام السّورة الكريمة. وإنّ هذا القول فى أوّل آيات القسم : ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج فى بعضٍ﴾ يصحّ أن يعود على يأجوج ومأجوج الّذين حبسوا وراء السّدّ وهاجوا وماجوا. ويصحّ أن يعود إلى الخلائق الّذين تلك صفتهم بين يدي السّاعة وفيهم يأجوج ومأجوج. ولا ننسى أنّ خروج يأجوج ومأجوج بنصّ القرآن الكريم من علامات السّاعة. وإنّ كلّ هذه الملابسات مهيّئةٌ للنّصّ على النّفخ فى الصّور من أجل الاجتماع لفصل الحساب. وفى يوم القيامة يعرض الله تعالى جهنّم على الكافرين الّذين لم يكونوا يرون بعين البصيرة نور القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم، والّذين لم يكونوا يستطيعون سماع آي الذّكر الحكيم سماع وعيٍ وتدبّر. وفى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ التّقريعيّ يكون سؤال الكافرين المشركين : أفحسبوا أن يتّخذوا عبادي من دونى أولياء وأصدقاء ونصراء على أمل أن ينفعوهم يوم القيامة، لقد خذلوهم وكانوا عليهم ضداً، وها هي ذى جهنّم الّتى أعدّها الله تعالى يدخلونها.

وتبعاً لفساد عقيدة القوم فسد عملهم وضلّ سعيهم. إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس : هل نخبركم بالأخسرين أعمالا؟ إنّهم الّذين ضلّ سعيهم فى هذه الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ويتقنون عملا. إنّهم الّذين كفروا بآيات الله تعالى وبلقائه جلّ وعلا يوم القيامة لذا فقد أبطل الله تعالى أعمالهم ولا يقيم جلّ وعلا لهم يوم القيامة وزنا. إنّ جزاء أولئك جهنّم بسبب كفرهم واتّخاذهم آيات الله تعالى ورسله جلّ وعلا هزوا. وفى مقابل خلود الكافرين فى النّار خلود المتّقين الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فى جنّات النّعيم. إنّ لهؤلاء جنّات الفردوس منزلاً ومكاناً، ولا يبغون عنها تحوّلاً ورحيلاً. ولمّا كان القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، ومعجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة، ولمّا كانت السّورة الكريمة قد تحدثت فى أوّلها عن القرآن الكريم وعن الوحي فإنّ السّورة الكريمة تتحدّث فى هذا المعنى فى آخرها. إنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقول للمعرضين عن وحي الله تعالى وكلامه جلّ وعلا لو كان البحر مداداً لكلمات الله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله تعالى ولو جيء بمثل ذلك البحر مددا. ويؤمر المصطفى ﷺ كذلك بأن يقول : إنّما أنا بشرٌ مثلكم أيها النّاس يوحَى إلىّ أنّما إلهكم إلهٌ واحدٌ لا شريك له. فمن كان يرجو الثّواب حين لقاء ربّه جلّ وعلا، فليعمل عملاً صالحاً، وبذلك يتحقق شرط صلاح العمل، ولا يشرك بعبادة ربّه جلّ وعلا أحدا، وبذلك يتحقّق شرط صلاح النيّة. إنّهما شرطان ضروريّان كي يتفضّل الله تعالى بقبول الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام.

التفسير

(١)

« بقيّة قصّة موسى عليه السّلام مع الخَضِر »

الآيات (٧٥-٨٢)

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾

هذه الآية الكريمة على لسان الخَضِر[1] يخاطب فيها موسى عليه السّلام الّذى جاء على لسانه فى الآية الكريمة السّابقة الّتى انتهى بها الجزء الخامس عشر : ﴿أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكراً﴾ والخَضِر ينكر على موسى عدم استطاعته الصّبر معه، وعدم التّزامه للمرّة الثّانية بالشّرط الّذى قبله وهو ألاّ يسأل الخضر عن أيّ شيءٍ، حتى تكون المبادرة من الخضر بذكر ما يريد موسى معرفته. وإنّه بالمقارنة بين هذه الآية الكريمة الّتى يسأل الخضر فيها موسى فى إنكار للمرّة الثّانية وبين الآية الكريمة الّتى يسأل الخضر فيها موسى للمرّة الأولى، وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿قال ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبرا﴾ تبيّن أنّ الاستفهام الإنكاريّ فى المرّة الثانيّة يزيد بالجارّ والمجرور العائدين إلى موسى عليه السّلام : ﴿لك﴾ فالسّؤال موجّهٌ إلى موسى بطريقٍ مباشر، أمّا السّؤال فى المرّة الأولى فإنّه أقرب إلى كونه مطلقاً، مع أنّه موجّهٌ إلى موسى عليه السّلام : ﴿قال ألم أقل إنّك لن تستطيع معيِ صبرا﴾ وسبق أن أشرنا إلى أنّ الحديث رقم ٤٧٢٦ من فتح البارى[2] جاء فيه القول : «كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثّالثة عمدا» وبالإضافة إلى تمشّى الجارّ والمجرور : ﴿لك﴾ فى المرّة الثّانية مع الشّرط، هما يتمشّيان مع القول على لسان موسى عليه السّلام والإنكار الأشدّ فى المرّة الثّانية منه فى المرّة الأولى كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكراً﴾ إنّ النُّكْر أشدّ من الإمر الّذى جاء فى المرّة الأولى على لسان موسى عليه السّلام : ﴿لقد جئت شيئاً إمرا﴾.

---

(١) ترجمة الخضر فى تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ١٧/ ١٧٦ تصوير بيروت.

(٢) ٨/ ٤١١.

قَالَ إِن

سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

قد بلغت من لدنّى عذرا : لَدُنْ أخصّ من عند لأنّه يدلّ على ابتداء نهاية، نحو : أقمت عنده من لدن طلوع الشّمس إلى غروبها، فيوضع لدن موضع نهاية الفعل. قال بعضهم : لَدُن أبلغ من عند وأخصّ (١) .

قال موسى عليه السّلام للخَضِر : إن سألتك عن شيءٍ بعد هذه المرّة الثّانية فلا تصاحبنى ولا تسمح لي بأن أرافقك. قد بلغت العذر فى شأنى(٢).

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾

فانطلق موسى عليه السّلام والخَضِر حتّى إذا أتيا أهل قرية فطلبوا منهم أن يطعموهما وأن يعاملوهما معاملة الأضياف ولكنّهم أبوا أن يفعلوا ذلك. وفى تلك القرية، وهي بمعنى المدينة، وجد موسى والخضر جداراً يريد أن ينقضّ، ويوشك أن يسقط، فأقامه الخضر وأصلحه. وسبق أن جاء فى الحديث رقم ٤٧٢٥ من فتح البارى(٣) : «﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ﴾ قال : مائل. فقام الخَضِر : ﴿فأقامه﴾ بيده» ويقول ابن كثير(٤) : «إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض هو السّقوط».

قال موسى عليه السّلام للخَضِر : لو شئت لأخذت فى مقابل إصلاح الجدار ثمناً، واتّخذت فى مقابل ردّه إلى حالة الاستقامة أجراً نحصل به على طعامٍ لنا.

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «لدن» ٤٤٩.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٥

(٣) ٨/ ٤١٠.

(٤) .تفسير ابن كثير ٣/ ٩٨.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي

وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

قال هذا فراق بينى وبينك : قال له الخضر هذا وقت فراق بينى وبينك. فيه إضافة بين إلى غير متعدّد، سوّغها تكريره بالعطف بالواو [١] والفِراق والمفارقة تكون بالأبدان أكثر[٢] ويقول الطّبرى[٣] : «يقول : فرقة ما بينى وبينك، أي مفرق بينى وبينك».

سأنبّئك : سأخبرك[٤] .

بتأويل : بتفسير[٥] .

قال الخضر: هذا وقت فراق بينى وبينك ومفارقة كلٍ منّا للآخر بناءً على الشّرط الّذى اشترطته على نفسك : ﴿قال إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنّى عذرا﴾.

ويَعِدُ الخضر بأن يفسّر لموسى عليه السّلام قبل الفراق ما لم يستطع موسى عليه السّلام صبراً عليه حتّى يفسّره الخضر له بذات نفسه.

---

(١) الجلالين وانظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/١٩٦

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فرق» ٣٧٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/١٨٨.

(٤) تفسير الطّبرى ١٥/١٨٨

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٩٨.

أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

وكان وراءهم : إذا رجعوا. أو أمامهم الآن[١] وقدّامهم[٢]
ملكٌ : من الظّلمة[٣] كافر[٤].
يأخذ كل سفينة : صالحة أي جيّدة[٥] صحيحة[٦].

أما السّفينة الّتى خرقها الخضر بالقَدُوم حينما كان يركبها مع موسى عليه السّلام فكانت لمساكين يعملون فى البحر عليها، ويطلبون فضل الله تعالى بواسطتها، فأراد الخضر أن يعيبها بإحداث الخرق فيها، لأنّه كان وراء هؤلاء المساكين إذا رجعوا بسفينتهم ملكٌ كافرٌ ظالمٌ، يأخذ كل سفينة صالحة سليمة غصباً وظلماً. وبإذن الله تعالى أنقذ ذلك الخرق الّذى يسهل إصلاحه تلك السّفينة من الاستيلاء عليها وأخذها ظلماً وعدوانا.

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير الطبرى ١٦/ ٢ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ورى» ٥٢٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٨.
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٨.
(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

وأمّا الغلام : فإنّه كان كافرا [١].

فخشينا أن يرهقهما : يقول : يغشّيهما [٢] .

طغياناً وكفـراً : هو الاستكبار على الله والكفر به [٣] أي يحملهما حبّه على متابعته على الكفر [٤] عن ابن عبّـاسٍ عن أبيّ بن كعب أنّ رسـول لله ﷺ قال : الغلام الّذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا [٥].

خيراً منه زكاةً : خيـراً من الغلام الّذى قتله صلاحاً وديناً [٦] قيل : أبدلهما ربّهما بغلامٍ مسلم [٧].

وأقرب رُحْما : وأقرب رحمةً بوالديه وأبرّ بهما من المقتول [٨].

وأمّا الغلام الّذى قتله الخضر فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين، وكان ثمة خشيةٌ وخوف أن يرهقهما طغياناً وكفراً، ويحملهـما على متابعته فى طغيانه على عباد الله تعالى وكفره بالله تعالى.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣.

(٣) انظر تفسير الطّبرى ١٦/ ٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٨.

(٥) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤.

لقد شاء الله تعالى أن يبدل الوالدين ولداً خيراً من المقتول صلاحاً وديناً، وأقرب رحمةً بوالديه وبراً بهما.

ويلاحظ فى الآية الكريمة الأولى مجيء القول : ﴿فخشينا﴾ وفى الآية الكريمة الأخرى القول : ﴿فأردنا﴾ وإنّ فى استعمال ضمير جماعة المتكلّمين إيماءً إلى دور الخَضِر، بإذن الله تعالى، بشأن الغلام المقتول، وإلى علمه، بفضل الله تعالى، بالولد البديل منه الّذى سيكون بنصّ الآية الكريمة : ﴿خيراً منه زكاةً وأقرب رُحْما﴾.

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

وكان تحته كنزٌ لهما : قال عكرمة وقتادة وغير واحد : وكان تحته مالٌ مدفونٌ لهما (١).

فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما : فأراد ربّك أن يدركا ويبلغا قوّتهما وشدّتهما (٢).

رحمةً من ربّك : لليتيمين (٣).

وما فعلته عن أمرى : وما فعلت يا موسى جميع الّذى رأيتنى فعلته عن رأيى ومن تلقاء نفسى، وإنّما فعلته عن أمر الله إيّاي به (٤) وليس عن اجتهادى ورأيى (٥).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/٩٨ وتفسير الطّبرى ١٦/٦.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/٦.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/٦.

(٥) الكشاف ٢/٢٦٩.

يواصل الخضر تفسير أعماله فيميط اللّثام عن الحكمة من بناء الحائط فيقول : وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما لو سقط الجدار لضاع المال، وكان أبوهما صالحاً. ونستطيع أن نفهم أنّ هذا المال من كسب طيّب، وأنّ صلاح الآباء ينال خيره الأبناء، وها هو ذا ربّ العزّة والجلال الّذى لا معقّب لحكمه القادر على كلّ شيءٍ يريد لهذين الغلامين اليتيمين أن يبلغا أشدّهما، ويدركا قوّتهما ورشدهما، ويستخرجا كنزهما، رحمةً من الرّبّ البرّ الرّحيم باليتيمين الصّغيرين.

وبيّن الخضر الّذى آتاه الله تعالى علم الباطن أنّ ما فعله بشأن السّفينة والغلام واليتيمين لم يكن عن أمره ومن تلقاء نفسه إنّما من أمر الله تعالى له أن يفعل كلّ ذلك.

وهكذا تتجلّى الحكمة البالغة من وراء كلّ من الأعمال الثّلاثة الّتى قام بها الخضر والّتى كان ظاهرها الخطأ، ولهذا أنكرها موسى عليه السلام، وكان باطنها الصّواب وعين الحقّ. وسبق أن مرّ بنا فى الحديث الّذى رواه البخارىّ فى صحيحه [1] : «فقال رسول الله ﷺ : وددنا أنّ موسى كان صبر حتّى يقصّ الله علينا من خبرهما».

ويجىء على لسان الخضر فى نهاية الآية الكريمة والقصّة خطاباً لموسى عليه السلام قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾ أي هذا تفسير مالم تستطع عليه صبراً.

وفى ضوء الحقيقة اللّغويّة الّتى تقول : إنّ الزّيادة فى المبنى تدلّ على الزّيادة فى المعنى، وفى ضوء زيادة جملة تستطيع فى المبنى بالقياس إلى جملة تسطيع بحذف التّاء يقول ابن كثير، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة [2] : ﴿ذلك تأويل

---

(١) الحديث رقم ٤٧٢٥ فى فتح البارى ٨/ ٤١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٠..

مالم تسطع عليه صبـرا﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ولم تصبـر حتّى أخبرك به ابتداءً. ولمّا أن فسّره له وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال : ﴿تسطع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قويّاً ثقيلاً فقال : ﴿سأنبّئك بتـأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل والأخفّ بالأخفّ كـما قـال : ﴿فمـا اسطاعوا أن يظهـروه﴾ وهو الصّعـود إلى أعلاه ﴿وما اسـتطاعوا له نقبـا﴾ وهو أشقّ من ذلك. فقـابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى. والله أعلم».

((٢))

« ذو القرنين، مثال الحاكم المسلم لله ربّ العالمين»

الآيات (٨٣-٩٨)

وَيَسْـَٔلُونَكَ

عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

ويسألك يا محمّد مشركو مكّة عن ذى القرنين. قل لهم : ﴿سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ وأقصّ عليكم عنه خبرا. وعن عليٍّ رضي الله عنه أنّ ذا القرنين كان عبداً صالحاً أحبّ الله فأحبّه وناصح الله فنصحه [1] وثمّة اختلافٌ بين العلماء بشأن السّبب الّذى لُقّب الرّجل الصّالح من أجله بذى القرنين.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

وآتيناه من كلّ شيءٍ سببا : قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسّدّى وقتادة والضحّاك وغيرهم : يعنى علماً [2] والسَّبب : الحبل الّذى يُصْعَد به النخل والجمع أسباب. وسمّي كلُّ ما يُتوَصَّل به إلى شيءٍ سببا. قال تعالى : ﴿وآتيناه من كلّ شيءٍ سببا. فأتبع سببا﴾ ومعناه أنّ الله تعالى آتاه من كلّ شيءٍ معرفةً وذريعةً يتوصّل بها فأتبع واحداً من تلك الأسباب [3].

فأتبع سببا : يقال : أَتْبَعَه إذا لحِقَه [4] قال [5] : ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ ﴿ثم أتبع سببا﴾ [6] : ﴿وأتبعناهم فى هذه الدّنيا

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٠١.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سبب» ٢٢٠ ولسان العرب : «سبب».

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «تبع» ٧٢ وتفسير الطّبرى ١٦/٩.

(٥) سورة الشعراء ٦٠.

(٦) سورة الكهف ٩٢.

لعنة﴾ [1] : ﴿فأتبعه الشّيطان﴾ [2] وبشأن الجزئيّة الكريمة الأخيرة من سورة الأعراف يقول ابن القيّم [3] : «ولم يقل تبعه، فإنّ فى معنى أتبعه أدركه ولحقه. وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى».

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ ربّ العزّة والجلال مكّن فى الأرض لذى القرنين، الحاكم الصالح، وشدّ ملكه، وهيأ له كافّة الأسباب الّتى تمكّنه، بإذن الله تعالى، من تقديم الصّورة الحسنة، والقدوة الصّالحة، للحاكم المسلم لله تعالى ربّ العالمين. وقد وفقّ الله تعالى ذا القرنين لتوظيف كلّ تلك الأسباب، وتسخير كلّ تلك الوسائل، لبناء الدّولة المسلمة الّتى تطبّق شرع الله تعالى، ومن تلك الأسباب والوسائل، بل فى مقدمتها العلم الّذى أحسن ذو القرنين تسخيره فى خدمة دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين.

وتقرر الآية الكريمة الأخرى أنّ ثمّة سبباً واحداً على جهة الخصوص، موصولاً بسائر الأسباب، قد وظّفه ذو القرنين خير توظيف، وبصفةٍ فوريّةٍ ومستمرّة على نحو ما يُفهم من حرف الفاء الّذى يفيد في مجال العطف التّرتيب مع التّعقيب وذلك فى القول : ﴿فأتبع سببا﴾ وهذا السّبب هو الضّرب فى أرض الله تعالى الواسعة، مجاهداً فى سبيل الله تعالى، ناشراً دين الإسلام لله ربّ العالمين، مستفيداً من كلّ الأسباب لخدمة هذا السّبب الجليل الخطر، مسخّراً كلّ الوسائل من أجل هذه الغاية السّامية، والهدف النّبيل.

وقد وفّق الله تعالى ذا القرنين فى مهمّته، وها هو ذا يضرب فى أرض الله تعالى الطّويلة العريضة قامعاً للظّلم، ناشراً للعدل، على نحو ما يتبيّن من الآيات الكريمات التّاليات.

---

(١) سورة القصص ٤٢.

(٢) سورة الأعراف ١٧٥ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «تبع» ٧٢.

(٣) الفوائد ١٣٣.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾

وجدها تغرب فى عينٍ حمئة : وجدها تغرب فى عين ماءٍ ذات حمأة (١) وذات حَمَأ (٢) والحَمْأة والحَمَأ : طينٌ أسودُ منتن (٣) .

ووجد عندها قوماً : كافرين (٤) أي أمّةً من الأمم (٥)

عذاباً نُكْراً: عذاباً عظيما، وذلك عذاب جهنّم (٦) .

فله جزاءً الحُسْنى : فله عند الله الحُسْنى وهي الجنّة جزاءً، يعنى ثواباً على إيمانه وطاعته ربّه (٧) .

وسنقول له من أمرنا يُسْرا : عن مجاهد معروفا (٨) .

استمرّ ذو القرنين الحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين فى سيره بجحافله باتّجاه الغرب، قامعاً للظّلم، ناشراً للعدل، حتّى إذا بلغ أقصى موضعٍ فى المغرب تبيّن فيه أنّ الشّمس تبدو للعين كما لو أنّها تغرب فى عين ماءٍ ذات طينٍ أسودَ منتن، ووجد عند تلك العين قوماً وأمّةً من الأمم كافرة. دعا ذو القرنين تلك

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٩.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حمى» ١٣٣.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حمى» ١٣٣.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٢.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١.

الأمّة الكافرة إلى دين الإسلام لله ربّ العالمين، وكان منهم من أصرّ على كفره على غرار كفّار مكّة، ومنهم من آمن. وقيل لذى القرنين الحاكم المسلم لله تعالى ربّ العالمين، بأنّ من حقّه أن يعذّب من يستحقّ العذاب، وأن يحسن إلى من يستحقّ الإحسان.

قال ذو القرنين : إنّ من ظلم بإصراره على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى فإنّه سوف يعذّبه ويعاقبه، ثم يردّ يوم القيامة إلى بارئه جلّ وعلا الّذى يعذّبه عذاباً عظيماً، بسبب شركه وارتكابه ذلك الذّنب العظيم الّذى لا يغفره الله تعالى.

وأمّا من آمن بالله تعالى وعمل صالحاً كما أمر الله عزّ وجلّ فإنّ له يوم القيامة الجنّة جزاء إحسانه، وسيقول له ذو القرنين فى الحياة الأولى المعروف من القول، ويصدر له اليسير من الأمر والتّوجيه. وما يقوله ذو القرنين ويفعله يقوله ويفعله كلّ ذى سلطةٍ من أمّة الإسلام لله تعالى ربّ العالمين.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

وَجْهُ الشَّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة : ﴿ثمّ أتبع سببا﴾ وبين الآية الكريمة السابقة الخامسة والثّمانين : ﴿فأتبع سببا﴾ فإنّ الاختلاف بينهما ينحصر فى حرفي العطف، فإذا كانت الفاء تفيد التّرتيب مع التّعقيب فإنّ ثمّ تفيد التّرتيب مع التّراخى. وبذلك أومأت ثُمَّ إلى الفترة الزّمنيّة المتأخّرة بالضّرورة حينما تمكّن ذو القرنين بإذنٍ من الله تعالى وفضل أن يُتْبِع سبباً آخر ويَلْحَقَه، يحقّق السّير بجيشه الضّخم تجاه المشرق ويدركه.

وقد نصّت الآية الكريمة الثّانية على الجهة، فها هو ذا ذو القرنين يواصل السّير حتّى يبلغ أقصى الشّرق الّذى عُبِّر عنه بمطلع الشّمس كما عبّر عن أقصى

الغرب من قبل بالـقول : ﴿حتّى إذا بلغ مغرب الشّـمس﴾ والمراد مطلع الشّمس للعَيْن. وها هي ذى الشّمس تطلع على قومٍ لم يجعل الله تعالى لهم من أشعّتها وضوئها ستـرا وغطاء «وذلك أنّ أرضهم لا جبل فيها ولا شـجر ولا تحتمل بناءً فيسكنوا البيوت وإنّما يغورون فى المياه أو يسربون فى الأسراب» [1] والله أعلم. بمعنى أنّهم كـانوا إذا طلعت عليهم الشّـمس دخلوا أسراباً لهم وسـراديب حتى تزول الشّمس أو دخلوا البحر [2] .

الأمر كذلك وكما قـال عزّ وجلّ الّذى أحاط بما لدى ذى القرنين علما [3]

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٣.

(٣) الجلالين وتفسير الطّبرى ١٦/ ١٢ وتفسير ابن كثير. ٣/ ١٠٣

ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى
حَقًّا ﴿٩٨﴾

حتّى إذا بلغ بين السّدّين : عن ابن عبّاس : ﴿حتّى إذا بلغ بين السّدّين﴾ قال : الجبلين(١) .

وجد من دونهما : أي أمامهما (٢) .

لا يكادون يفقهون قولاً : لا يكادون يفقهون قول قائلٍ سوى كلامهم (٣).

إنّ يأجوج ومأجوج : أمّتان من وراء السّدّ (٤).

فهل نجعل لك خرجاً : عن ابن عبّاس : أجراً عظيما (٥) والخَرْجُ أعمّ من

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣ .

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٣ .

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ١٤

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤ . .

الخراج. وجُعِلَ الخرج بإزاء الدّخْل. والخراج مختصٌّ فى الغالب بالضَّريبة على الأرض [١].

قال ما مكّنّى فيه ربّى خير : أي إنّ الّذى أعطانى الله من الملك والتّمكين خيرٌ لي من الّذى تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام [٢] : ﴿أتمدّونَنِ بمالٍ فما آتاني الله خيرٌ ممّا آتاكم﴾ [٣].

فأعينونى بقوّة : ساعدونى بعملكم وآلات البناء [٤].

أجعل بينكم وبينهم ردما : الرّدم سدّ الثُّلمةِ بالحجر [٥].

آتونى زبر الحديد : أي جيئونى بزبر الحديد وهي جمع زُبرة [٦] والزُّبْرة قطعةٌ عظيمةٌ من الحديد [٧].

حتّى إذا ساوى بين الصّدفين : حتّى إذا ساوى بين جانبي الجبلين [٨]. وناحيتيهما ورءوسهما [٩].

قال انفخوا : قال للفعلة انفخوا النّار على هذه الزّبر من الحديد [١٠].

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: « خرج » ١٤٥.

(٢) سورة النّمل ٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ردم» ١٩٣.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٠.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «زبر» ٢١١.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «صدف» ٢٧٦ والجلالين.

(٩) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٠.

(١٠) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢١.

حتّى إذا جعله نارا : فى الكلام متروكٌ وهو : فنفخوا حتّى إذا جعل ما بين الصَّدَفين من الحديد نارا [١].

آتونى أفرغ عليه قِطْرا : أعطونى قِطْراً أُفْرِغ عليه [٢] وقوله : ﴿أفرغ عليه قطرا﴾ يقول : أصبّ عليه قطرا. والقِطر : النُّحاس [٣] المذاب [٤].

فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً : فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ظهره لارتفاعه وملاسته وما استطاعوا أن يخرقوه لصلابته وسمكه[٥] وأن ينقبوه من أسفله[٦] ولمّا كان الظّهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه[٧].

فإذا جاء وعد ربّى : فإذا جاء وعد ربّى الّذى جعله ميقاتاً لظهور هذه الأمّة وخروجها من وراء هذا الرَّدْم[٨].

جعله دكّاء : سوّاه بالأرض فألزقه بها منْ قولهم : ناقةٌ دكّاء مستوية الظّهر لا سنام لها[٩] وجاء بشأن يأجوج ومأجوج قول الحق جلّ وعلا فى سورة

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢١.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢١.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قطر» ٤٠٧ والجلالين.

(٥) انظر الجلالين وتفسير الطّبرى ١٦/ ٢٢.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٢ وتفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤.

(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٢.

(٩) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٢.

الأنبياء[1] : ﴿حتّى إذا فُتِحَتْ يأجوج ومأجوج[2] وهم من كلّ حَدَبٍ[3] ينسِلون[4] واقترب الوعد الحقّ[5] فإذا هي شاخصةٌ أبصار الّذين كفروا يا ويلنا قد كنّا فى غفلةٍ مِنْ هذا بل كنّا ظالمين﴾.

بعد أن بلغ ذو القرنين مطلع الشّمس كما يبدو للعين، أتبع سببا، وواصل سيره، قائماً بالقسط، دامغاً للظّلم : ﴿ثمّ أتبع سببا﴾ ومن البيّن أنّ هذه الآية الكريمة هي ذات الآية الكريمة التاسعة والثّمانين السّابقة. وتفيد «ثمّ» التّرتيب مع التّراخى فى كلتا المناسبتين، وذلك دليلٌ على تأخّر هذه العمليّة الطّبيعىّ من ناحية، ودليلٌ على استنفادها بالضّرورة شيئاً من الوقت، وشيئاً من الجهد من ناحيةٍ أخرى.

واصل ذو القرنين الحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين السّير بجيشه فى إحدى نواحى المشرق. حتى إذا بلغ بين السّدّين، ووصل بين الجبلين المنيفين، وجد من دونهما وأمامهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ولا يحسنون تعبيراً. وربّما كان ذلك بسبب انعزالهم فى تلك الأماكن النّائية ممّا نجم عنه ضعف ألسنتهم عن القدرة على التعبير عمّا تكنّه نفوسهم، وعدم سهولة التّعامل معهم بالقدر المطلوب، وكأنهم يقعون وسطاً بين الحضارة الّتى يمثّلها ذو القرنين وجيشه، والبداوة الّتى يمثّلها يأجوج ومأجوج.

استطاع هؤلاء القوم الّذين لا يكادون يفقهون قولاً بعد لأي أن يبيّنوا للحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين بأنّ يأجوج ومأجوج، الّذين يسكنون وراء الجبلين والسّدّين المذكورين، مفسدون فى الأرض بالسّلب والنّهب وقطع الطّريق وما إلى ذلك. وعرضوا على ذى القرنين اقتراحاً مفاده أن يجعلوا له مبلغاً

---

(١) الآية ٩٦ و ٩٧.

(٢) أي سدّهما وذلك قرب القيامة.

(٣) مرتفع من الأرض.

(٤) يسرعون.

(٥) أي يوم القيامة. الجلالين.

من المال يدبّرونه من أجله فى مقابل أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض سداً منيعاً.

ويكون من ذى القرنين الجواب الّذى لا يكون غيره من كلّ حاكمٍ مسلم لله ربّ العالمين قويّ أمين. قال ذو القرنين إنّ الّذى مكّنني الله تعالى فيه، والّذى آتاني من الملك والتّمكين فى الأرض، خيرٌ من المال الّذى تعرضونه علّي مقابل عملٍ أجد أنّ من واجبى أن أقوم به شكراً لله تعالى على نعمه العظيمة علىّ. وإنّ جواب ذى القرنين على القوم يذكّرنا بجواب سليمان عليه السّلام على ملكة سبأ الّتى أرادت أن تعرف بهديّتها الّتى بعثت بها إلى سليمان عليه السّلام أهو نبيٌّ فيرفض الهديّة أم أنّه مَلِكٌ فيقبلها. جاء فى سورة النّمل[1] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فلمّا جاء سليمانَ قال أتمدّونن بمالٍ فما آتاني الله خيرٌ مّما آتاكم بل أنتم بهديّتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها ولنخرجنهم منها أذلّةً وهم صاغرون﴾.

ويضرب ذو القرنين المَثَلَ الرّائع للحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين المتواضع لله تعالى فى مجالٍ غايةٍ فى الأهمّيّة متعلّقٍ بالنّصح للأمّة. ويتجلّى هذا النّصح للأمّة فى تفجير ذى القرنين بفضل الله تعالى طاقة القوم للعمل النّافع حينما لا يتعالى عليهم وحينما يطلب منهم أن يعينوه بقوّة السّاعد والمادّة كي يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج بإذن الله تعالى سداً منيعاً ورديماً حصينا. إنّه يأمرهم بأن يعطوه زبر الحديد وقطعه الضّخمة الّتى ملأ بها فى انتظامٍ ذلك المكان، حتّى بلغ السّدّ أعلى الجبلين، وساوى الرّدم رءوس الجبلين المنيفين. وهنالك طلب ذو القرنين من القوم أن ينفخوا النّار على زبر الحديد حتّى صار الحديد كتلةً من النّار المتأجّجة الاشتعال. وهنالك طلب ذو القرنين من القوم أن يعطوه النّحاس المذاب بالنّار كي يفرغه على تلك الكتلة المشتعلة من الحديد الّتى التحمت اجزاؤها بالقِطْر

---

(١) الآية ٣٦ و ٣٧.

وازدادت قوّتها بالنُّحاس المذاب.

وكانت النّتيجة الحسنة بفضل الله تعالى لهذا العمل العظيم من هذا الحاكم المسلم لله ربّ العالمين أنّ يأجوج ومأجوج ما اسطاعوا أن يرقوا على ظهر ذلك السّدّ لملاسته وارتفاعه. وما استطاعوا أن يخرقوه ويثقُبوه وينقُبوه لقوّته وسماكته من أسفله. ولّما كان الارتقاء على ظهر السّدّ أسهل العملين فيما يبدو جاءت جملة اسطاع الّتى فيها حذف التّاء فكان نطق الجملة سهلاً إيماءً إلى هذه السّهولة، ولّما كان نقب السّدّ من أسفله أصعب العملين جاءت جملة استطاع بدون حذف التاء فكان نطق الجملة صعباً إيماءً إلى هذه الصّعوبة.

وقد تحصّل العلماء الّذين يبنون السّدود ويتعاملون مع المعادن على الكثير من الفوائد العمليّة من الآيات الكريماتّ، ومن هذه الفوائد أنّ من شروط بناء السّدود أن يكون مستوى ارتفاع الجانبين أو الصّدفين كما جاء فى الآية الكريمة واحداً، ومن هذه الفوائد كذلك دور النّحاس الأساسيّ فى تقوية الحديد وكونه عنصراً أساسياً فى عمليّة التّصنيع. ومن الأدلّة على ذلك أنّ إحدى الدّول الصّناعيّة، بين يدي الحرب الكونيّة الثّانية، كانت تحصل سراً على كلّ ما تقع يدها عليه من النّحاس. وقد انكشف بعد ذلك السّرّ وراء اختفاء النّحاس من الأسواق العالميّة حينما ظهرَتْ ترسانتها العسكريّة الهائلة، وبطشتْ بطشتها الكبرى المفاجئة. والمعروف أنّ هذه القوّة الهائلة غير الموصولة بالله تعالى كان من الطبيعيّ أن تكون غاشمة، فقد أهلكت الحرث والنّسل ولم ترقب إلاّ ولا ذمّة.

فلنقارن بين تلك القوّة الغاشمة، لأنّها غير موصولة بالله تعالى، وبين ذى القرنين، الحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين. إنّه بعد أن وفّقه الله تعالى فبنى السّدّ المنيع كان الغاية فى التّواضع لله تعالى امتثالاً لمثل قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿تلك الدّار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً. والعاقبة للمتّقين﴾ إنّ ذا القرنين يعلن على رءوس الأشهاد بأنّ هذا التوفيق

---

(١) سورة القصص ٨٣

لبناء السّدّ من مظاهر رحمة الله تعالى الواسعة الّتى وسعته فتمكّن من تسخير كلّ ما منّ الله تعالى به عليه من قوىً روحيّةٍ ومادّيّة لإعلاء كلمة الله تعالى. فإذا جاء وعد الله تعالى إيذاناً بيوم القيامة جعل الله تعالى ذلك السّدّ العاليَ دكّاء وسوّاه بالأرض. وكان وعد الله تعالى حقّاً وصدقاً بقيام الساعة ومجيء علاماتها وأشراطها، ومن تلك العلامات والأشراط أن تُفْتَحَ يأجوج ومأجوج بنصّ القرآن الكريم، أي سدّهما.

((٣))

« بعض أهوال يوم القيامة، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين»

الآيات (٩٩-١١٠)

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

ونُفِخ فى الصّور فجمعناهم جمعاً : الصور هو مثل قَرْنٍ يُنْفَخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لِعَوْد الصُّوَر والأرواح إلى أجسامها[1] والّذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السّلام. والأحاديث فيه كثيرة[2] وجاء فى الحديث الّذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ أنّ الصّور قرنٌ عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات. الأولى نفخة الفَزَع. والثّانية نفخة الصّعَق. والثّالثة نفخة القيام لربّ العالمين[3].

بشأن الضّمير فى القول : ﴿بعضهم﴾ من العلماء ذهب إلى أنّه يعود إلى يأجوج ومأجوج. خاصّةً وأنّ خروجهم قبل يوم القيامة وبعد الدّجّال[4] ومن العلماء من ذهب إلى أنّ الضّمير يعود إلى الخلائق الّتى يموج بعضها فى بعض إيذاناً بيوم القيامة. وكلا الرّأيين مقبول. فيأجوج ومأجوج يموجون خلف السّدّ، ويموجون إذا اندفعوا من ورائه، والخلائق يموج بعضهم فى بعض.

وحينما يكون المقصود أنّ يأجوج ومأجوج تُرِكوا وراء السّدّ يموج بعضهم فى بعض، فإنّ هذه الحالّ لّما كانت حال الخلائق يوم القيامة كان ذلك مرشّحاً للحديث عن النّفخ فى الصّور الذى من متعلّقاته موج بعض الخلائق فى بعض.

وحينما يكون المقصود أنّ الخلائق يموج بعضها فى بعضٍ يكون ذلك مرشّحاً قويّاً لذكر النّفخ فى الصوّر لأنّ الأمرين من متعلّقات يوم القيامة.

وبشأن النّفخ فى الصّور المراد فى الآية الكريمة النّفخ للمرّة الأخيرة الّتى يجتمع الخلائق إثرها لفصل الحساب.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صور». ٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٥.

(٤) انظر ـ مثلا ـ تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٥.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

وعرضنا جهنّم يومئذٍ للكافرين عرضا : وأبرزنا جهنّم يوم ينفخ فى الصّور فأظهرناها للكافرين حتّى يروها ويعاينوها كهيئة السّراب(١).

فى يوم القيامة يَعْرِض الله تعالى جهنّم على الكافرين ويبرزها لهم، إمعاناً فى تخويفهم بها قبل أن يدخلوها. إنّ أولئك الكافرين كانت أعينهم فى الحياة الدّنيا فى غطاءٍ وحجابٍ عن ذكر الله تعالى وقرآنه المجيد وآياته البّينات، فلم يروا نور القرآن الكريم ولم يهتدوا بالوحي. وكما كانت أبصارهم عليلة عن إبصار نور الهداية كانت آذانهم كليلةً عن سماع صوت الهدى سماع تدبّر ووعي، ولمّا لم تكن آذانهم واعيةً فقد انحطّوا إلى درك الأنعام الّتى تسمع الصّوت ولكن لا تفهم له معنى : ﴿بل هم أضل﴾(٢).

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

أفحسب : أفظنّ (٣).

أعتدنا : أعددنا(٤) فأُبدل من إحدى الدّالين تاء(٥).

نزلا : النُّزل : ما يُعَدّ للنّازل من الزّاد(٦) والنّزل : المنزل(٧) أي هي معدّةٌ لهم كالمنزل المعدّ للضّيف(٨).

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٥.

(٢) سورة الأعراف ١٧٩.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٦.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٦. ومفردات الرّاغب الأصفهانى: «عتد» ٣٢١.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عتد» ٣٢١.

(٦) مفردات الراغب الأصفهانى : «نزل» ٤٨٩.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٦.

(٨) الجلالين.

فى أسلوب الاستفهام تستنكر الآية الكريمة على المشركين الّذين حسبوا اتّخاذهم عباد الله تعالى كالملائكة وعيسى عليه السلام أولياء من دون الله تعالى وظنّوا أنّ ذلك ينفعهم والحقيقة أنّه يضرّهم فكانوا عليهم ضداً ولهم أعداء.

وعقاباً للكافرين الّذين يصرّون على كفرهم وشركهم أعدّ الله تعالى لهم جهنّم منزلاً ينزلونه، وكأنّ ذلك المنزل، على سبيل الاستهزاء بالكافرين، بمثابة النّزل الّذى يعدّ للضّيف، والزّاد الّذى يقدّم له.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

صنعا : الصُّنع إجادة الفعل، فكلّ صنعٍ فعلٌ وليس كلّ فعلٍ صنعا(١).

فحبطت أعمالهم : فبطلت أعمالهم(٢).

فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا : فلا نجعل لهم ثقلاً، لأنّ الموازين إنّما تثقل بالأعمال الصّالحة(٣).

بما كفروا واتّخذوا آياتى ورسلى هزوا : بكفرهم بالله واتّخاذهم آيات كتابه وحجج رسله سخرياً واستهزائهم برسله(٤).

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صنع» ٢٨٦.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٨.

(٣) انظر تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٩.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ٢٩.

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يسأل الضّالّين عن سواء السّبيل الّذين لا يكفّون عن طرح الأسئلة بقصد التّعجيز والاستهزاء وليس بقصد الوصول إلى الحقيقة فإنّ الحقّ واضح، وأن يقول لهم على سبيل التّأنيب والتّقريع : هل أخبركم بالأخسرين أعمالاً على الحقيقة؟ إنّهم الّذين ضلّ سعيهم فى هذه الحياة الدّنيا وخاب عملهم فى الحياة الأولى وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ويتقنون عملاً. وحينما يكون ثمّة ظنٌّ أو اعتقادٌ بأنّ العمل صالحٌ وحسن، وفى غاية الإتقان والجودة، بينما هو فى الحقيقة والواقع بعكس ذلك، يكون الخسران كبيراً، والغَبْن شديداً. إنّ هذه هي حال الضّالّين الّذين يظنّون أنّ المؤمنين ضالّون عن سواء السّبيل! وينبغى أن يكون للجناس فى القول : ﴿وهم يحسبون أنّهم يحسنون﴾ دورٌ فى تعميق المعنى وتأكيد بعد الشّقّة بين الحسبان والإحسان، بين الظّنّ والحقّ، بين الأوهام والواقع.

إنّ أولئك الخاسرين هم الّذين كفروا بآيات ربّهم جلّ وعلا الّتى أوحاها إلى حبيبه المصطفى ﷺ، وكفروا بلقائه جلّ وعلا يوم القيامة. وبسبب كفرهم بآيات الله تعالى حبطت أعمالهم الصّالحة، لأنّهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى. وبسبب كفرهم بلقاء الله تعالى لا يقيم جلّ وعلا وزناً لهم يوم القيامة، لأنّ الوزن إنّما يكون بالأعمال الصّالحة، وقد أحبط الله تعالى أعمالهم الصّالحة فبقيت لهم أعمالهم الطّالحة.

وإنّما كانت جهنّم جزاءهم بسبب كفرهم واتّخاذهم آيات الله تعالى ورسله هزواً وسخرية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

الفردوس : قال قتادة : الفردوس ربوة الجنّة وأوسطها وأفضلها. وقد روي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن

النبيّ ﷺ : الفردوس ربوة الجنّة وأوسطها وأحسنها[1] وفى الصّحيحين : إذا سألتم الله الجنّة فاسألوه الفردوس فإنّه أعلى الجنّة وأوسط الجنّة ومنه تفجّر أنهار الجنّة[2].

نزلا : منازل ومساكن. والمنزل من النّزول وهو من نزول بعض النّاس على بعض[3].

لا يبغون عنها حِوَلا : لا يريدون عنها تحوّلا[4].

إنّ الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم إماماً، كانت لهم يوم القيامة جنّات الفردوس وأعالى الجنّة منازل ومساكن. وهم فى الجنّة خالدون، لا يُخْرَجون منها ولا يَخْرجون. بل إنهم لا يبغون عنها تحوّلا، ولا يريدون بها بدلا.

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى
لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

قل يا محمّد لو كان البحر الّذى يتلاطم موجه فى كلّ مكانٍ، ويتدفّق ماؤه فى أكثر أنحاء الأرض، المداد للقلم الّذى تُكْتَبُ به كلمات الله تعالى، لنفد البحر وفني ماؤه قبل أن تنفد كلمات الله تعالى وينتهى علمه جلّ وعلا. ولو جئنا بمثل ذلك البحر مددا، وبمثل ذلك الماء سندا.

وهذا المعنى تؤكّده هذه الآية الكريمة من سورة لقمان[5] قال عزّ من قائل : ﴿ولو أنّما فى الأرض مِنْ شجرةٍ أقلامٌ والبحر يَمُدُّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣١.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣١ ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «حول» ١٣٧.

(٥) الآية ١٧.

كلمات الله. إنّ الله عزيزٌ حكيم﴾ إنّ كلّ الشّجر لو كان أقلاماً تكتب بها كلمات الله تعالى، وكان البحر مداداً لتلك الأقلام، ومن وراء البحر سبعة أبحر، ومعروفٌ أنّ الرّقم سبعة يراد به أحياناً التّنبيه إلى الكثرة فى مرتبة الآحاد، لتكسّرت الأقلام، ونفدت البحار، وما نفدت كلمات الله تعالى.

قُلْ
إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟
لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

قل يا محمّد للمشركين المستهزئين المتعنّتين ولسائر النّاس : إنّما أنا بشرٌ مثلكم وواحدٌ منكم، يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد، لا معبود بحقٍّ سواه جلّ وعلا. فمن كان يرجو لقاء ربّه جلّ وعلا يوم القيامة، ويأمل فى ثوابه عزّ وجلّ، فليعمل فى هذه الحياة الأولى عملاً صالحاً بمقياس الإسلام، ولا يشرك بعبادة ربّه جلّ وعلا أحداً، بل يفرده جلّ وعلا وحده لا شريك له بالعبادة. وهكذا يتحقّق الشّرطان اللّذان ينبغى توافرهما كي يتفضّل الله تعالى بقبول الأعمال، وهما صلاح الأعمال بمقياس الإسلام، وأن يراد بها وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

تعقيب

نودّ فى هيئة نقاط أن نعقّب على تفسير سورة الكهف الكريمة.

١ - سورة الكهف من المكّيّ من القرآن الكريم الّذى نزل قبل الهجرة، وسورة الكهف كلّها مكّيّة[١].

٢ - جاء فى فضل سورة الكهف مجموعةٌ من الأحاديث النّبويّة الشّريفة. روى البخارى ومسلم وأحمد عن البراء أنّ أُسَيْد بن الحضير قرأ الكهف وفى الدّار دابّةٌ فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابةٌ أو سحابةٌ غشيته، فذكر ذلك للنّبيّ ﷺ فقال : اقرأ فلان فإنّها السّكينة تنزل عند القرآن أو تنزّلت للقرآن[٢] وروى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنّسائى والتّرمذيّ عن أبى الدّرداء عن النّبيّ ﷺ قال : من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصِمَ من الدّجّال. ولفظ التّرمذيّ : من حفظ ثلاث آيات من أوّل الكهف. وقال : حسنٌ صحيح[٣] وروى الإمام أحمد ومسلم والنّسائيّ عن أبى الدّرداء عن النّبيّ ﷺ قال : من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدّجّال. ولفظ النّسائيّ : من قرأ عشر آياتٍ من الكهف[٤] وأخرج الحاكم فى مستدركه عن أبى سعيد عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النّور ما بينه وبين الجمعتين، ثمّ قال : هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا رواه الحافظ أبو بكر

---

(١) انظر ـ مثلاً تفسير ابن كثير ٣/ ٧٠ و ١١٠ والإتقان ١/ ٤٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٧٠.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٧٠/.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٠.

البيهقيّ في سننه عن الحاكم[1].

٣ - وجه الشّبه كبيرٌ بين موضوعات القسم الأوّل المؤلّف من ثماني آيات كريمات، والقسم الأخير المؤلّف من اثنتي عشرة آيةً كريمة. إنّ ثمّة حديثاً عن الوحي، وعن عذاب الكافرين وثواب المؤمنين. وبذلك يلتحم آخر السّورة الكريمة بأوّلها.

٤ - قصّة أصحاب الكهف تصوّر الصّراع بين الإيمان والكفر، وتقرّر أنّ العاقبة للمتّقين، وتشير إلى زيادة الله تعالى الفتية أصحاب الكهف هدىً إلى هداهم وأخذ الله تعالى بأيديهم. وحينما يكون عدد أصحاب الكهف سبعةً وفق الرّأي الرّاجح يكون في خروج الفتية مجتمعين ولجوئهم إلى الكهف تنبيهٌ إلى قيمة الجماعة في الإسلام، وتأكيدٌ على أنّ الرّوح الجماعيّة في الإسلام من مقوّمات عصمة الأمّة، الّتي لا تجتمع على ضلالة.

٥ - الآيات التّعقيبية على قصّة أصحاب الكهف تنبّه بقوّة على عدم الاغترار بزينة الحياة الدّنيا. وهذا المعنى ذاته أومأت إليه الآية الكريمة السّابعة من القسم الأوّل في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملا﴾ وحينما يأمر السّياق المصطفى ﷺ بأن يصبر نفسه مع فقراء المؤمنين وبألاّ يلتفت لأغنياء الكافرين الّذين يطلبون منه ﷺ أن يعرض عن فقراء المؤمنين ويقبل عليهم يكون كلّ ذلك من قبيل التّوطئة لتحوّل السّورة الكريمة إلى الحديث عن الغنيّ الكافر صاحب الجنتين وتعاليه على الفقير المؤمن. وممّا يعمّق من دور هذه التّوطئة حديث آخر آيات التّعقيب عن جنّات عدنٍ ثواب المتّقين.

٦ - قصّة صاحب الجنتين الغنيّ الكافر مع الفقير المؤمن هي رمزٌ للصّراع بين الكافر الغنيّ المفتون بغناه وبين المؤمن الفقير الصّابر القانع. وهذا الصّراع موجودٌ في كلّ زمانٍ ومكان. وكما يكون كفران النّعم من الأفراد يكون من الجماعات بل من الدّول. وإنّ انهزام باطل الغنيّ الكافر المستكبر دليلٌ على أنّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧١.

العاقبة للمتّقين. يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات والأمم. فكما لا يليق بالفرد أن يكون قارون زمانه لا يليق ذلك بالجماعات والأمم. وكما خذل الله تعالى صاحب الجنّتين الكافر المستكبر يخذل الله تعالى كلّ الكافرين المستكبرين. فعلى الجميع أن يأخذ العظة والعبرة وأن يستفيد من هذا الدّرس القرآنيّ.

٧ - وفى الآيات التّعقيبيّة على قصّة صاحب الجنّتين اللّتين ذهبتا كأمس الدّابر يُضْرَب مثل الحياة الدّنيا بالنّبات الأخضر فى أوّل الأمر ثمّ لا يلبث أن يجف ويصبح هشيماً تذروه الرّياح. وإذا كان المال والبنون زينة الحياة الدّنيا فإنّ الأعمال الصّالحة خيرٌ ثواباً عند الله تعالى وخيرٌ أملاً. إنّ على الجميع ألاّ يغترّ بالحياة الدّنيا فإنّ مصيرها مصير جنّتي الكافر المستكبر، وأن يعملوا الصّالحات رجاء الثّواب، وأن يحذروا شياطين الإنس والجنّ الّذين لا يملكون لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، نفعاً ولا ضراً، وأن يسيروا وفق تعاليم القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم، والّذى تبيّنه سنّة المصطفي ﷺ.

ومن البيّن أنّ الآيات التّعقيبيّة هنا ترشد كلّ من كان على شاكلة صاحب الجنّتين، إلى الطّريقة الّتى هي أقوم.

٨ - قصّة موسى عليه السّلام والخضر تعطى صورةً لطيفةً لكلٍّ من عالمي الغيب والشّهادة. إنّ موسى عليه السّلام يمثّل عالم الشّهادة. وإنّ الخضر يمثّل عالم الغيب. إنّ موسى عليه السّلام يتعامل مع الأسباب. وإنّ الخضر اصطفاه الله تعالى مسبّب الأسباب يشيءٍ من عالم الغيب. إنّ المسلمين لله تعالى ربّ العالمين يؤمنون بكلٍّ من عالم الشّهادة وعالم الغيب. أمّا الكافرون وأمّا المشركون فإنّهم يتعاملون مع عالم الشّهادة وحده. وإنّ آفة الفتنة بعالم الشّهادة وحده كما يتورّط فيها الأفراد تتورّط الجماعات والأمم. إنّ على الجميع أن يؤمن بعالم الغيب كما يؤمن بعالم الشّهادة، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات.

ومن البيّن أنّ قصّة موسى عليه السّلام والخضر تعالج هذا الدّاء لدى الأفراد والجماعات والأمم. ومن البيّن كذلك أنّ هذه الآفة موجودةٌ فى كلّ عصرٍ ومصر.